الافتتاحية

نعم لجَلْدِ الذات

هل خَطَرَ في بالنا، نحن «المثقفين،» أن نشاهد أنفسَنا على التلفزيون؟

أتمنّى أن نَفْعل ذلك، لأنّ أكثرَنا ـ حينَها ـ سيطمّ رأسَه ويَحْلف باللّه العظيم أن لا يعيدها.

يسألوننا في كلّ شيء، ونحن نَعْرف كلّ شيء. وحتى إذا لم نعرفْ، فإنّنا نتملّص من الإجابة بأن نقول: «سنجيبك عن سؤالك، ولكنْ أولاً دَعْنا نوضحْ ما يلي...» وبعد الإيضاح، نَسْكت.

أو يسألوننا عن موقفنا من موضوعٍ «شائك» لا نريد أن نعطي رأيًا واضحًا فيه لكي لا نُغْضب فلانًا أو علاّنًا، فنقطّب حاجبينا، ونُلَمْلِمُ الغبارَ عن الطاولة بيَدِنا، ونَطْرح رأيَيْن متناقضَيْن، ثم نحاول التوليفَ بينهما مستخدمين الديالكتيكْ... والتكتيك.

تيكْ، تيكْ!

ولا ننسى أحيانًا أن نَزمّ شفاهَنا لإضفاء طابَعِ الجدّية على ما سنقوله، حتى لنبدوَ ـ واعذروني على ما سأتفوه به في مجلة يُفْترض أن تكون رصينةً ـ كَمَنْ فَسَتَ القطّةُ في أنفه.

وإذا نَرْفَزْنا، وتصاعَدَ البخارُ القومي أو الديني أو «الديموقراطي» إلى رؤوسنا، تناثَرَ البصاقُ، وتطايرت اليدان في الهواء، قبل أن نَسْكنَ ونُعيدَ ضبطَ الكراڤات أو تبكيلَ الجاكيت أو تمليسَ الشعر.

وإذا أردنا أن نهاجم السلطة في سورية مثلاً، سمّيناها «الراعي الإقليمي.»

وإذا حُشِرنا في وطنيَّتنا وثوريَّتنا، صببنا كلَّ غضبنا على شارون و«النظام» الإسرائيلي، وناشدْنا بوش أن يَرْفض الانصياعَ إليه... وكأنّ بوش أقلُّ إجرامًا، أو كأنّ «النظام» الإسرائيلي (پيريز؟ باراك؟ شامير؟) أكثرُ رأفةً من شارون.

وإذا أردنا أن نبرِّرَ تخلّينا عن الأطروحات «القديمة» (الكفاح المسلّح، الوحدة، الاشتراكيَّة، العدالة الاجتماعيَّة،...)، أبرزْنا تقاريرَ التنمية «البشريَّة» لنؤكّدَ أنّ «الأولويَّة» الآن هي لإصلاح أوضاعنا «الداخليَّة.»

إيَّة، إيَّة!

ثم نَنْهمر على المشاهدين بالأرقام والإحصائيّات والنِّسَب التي تُبيِّن تخلُّفَنا عن «الرَّكب العالمي،» وتُظْهر أنّ المشكلة هي في عقلنا الغيبي والخرافي، لا في المحتلّ الخارجي والمستبدّ الداخلي.

لقد لَبِسْنا ثوبَ الخبراء، ونَزَعْنا عن أنفسنا ثوبَ المثقفين.

والمثقف الحقيقي هو الهاوي، كما كان يقول عزيزُنا إدوارد. الهاوي من الهواية... ومنَ الهَوى أيضًا. إنّه شخصٌ لا يتردّد في إعلان جَهله بما لا يَعْرفه، ولا يتوانى عن السخرية من نفسه إذا اقتضى الأمر، ولا يَبْخلُ بعفويّته الجارحة حين تتكوّم الأكاذيبُ من حوله.

إنّ المثقف الحقيقي هو موقفٌ قبل أن يكون معلومةً أو رقمًا... وبخاصةٍ حين تصبح المعلوماتُ أو الأرقامُ حمّالةً للشيء ونقيضه معًا، أو مبرِّرًا للاستسلام أمام العدوّ القومي بحجّة «الإصلاح الداخلي.»

نَعم، علينا أن نَكْره أنفسَنا حين نصير غيرَنا، أيْ حين نصيرُ غيرَ ما يُفترض بنا أن نكون عليه: «صوتًا يَجْهر بالحقيقة في وجه القوة» كما يقول تشومسكي.

إنّ هذه الكلمات دعوةٌ إلى جلد الذات... كي نعود إليها.

كفانا «خُبراء.»

س. إ.

بيروت